تشاؤم المتـــنبي
وما أعد لهذا التشاؤم

«كلمة أعدت لتلقى فى مهرجان دمشق فجاءت متأخرة»

للأستاذ خليل هنداوى

التشاؤم طبيعة العقل المتيقظ الذى فتح عينيـه فرأى نفسه فى القافلة البشرية فأخذ يسأل نفسه : لِمَ يمشى ؟ ومن أين إلى أين ؟ ولـكنه لبث يمشى ... وكيف لا يتشاءم العقل حين ينظر إلى الـكون ويحاول أن يحـكم على أشـيائه بميزانه ، فيجد قاعداً ما كان يجب أن يكون قائماً ، وقائماً ما كان ينبغى له أن يكون قاعداً . هـذه النظرة الأولى التى تبدأ فى العقل حين يتيقظ وعلى مقدار سعة دوائر العقل تتسع هذه الآماد وتتباعد هذه الدوائر . وهنا يعود العقل فى كل مراحله خاسئاً يحمل إلى النفس خيبته فى رحلته ، فتلقاه حاملاً الشقاء دون عزاء والحيرة دون إيمان ، والنفس إزاء هـذا القلق العميق إما أن تعود إلى نفسها ويلتف بعضها على بعضها التفاف الأفعى ، تخلق من نفسها العزاء فى هذه الحياة ؛ وسواء عندها أن تخلقه من إيمان تفرضه أو تفاؤل تؤمن به ، فترى فى الحياة إشراقاً ولا إشراق وبهجة ولا بهجة ، فتتغنى مغتبطة بهذا التفاؤل الذى هو وليـد ذلك التشاؤم المبطن به ، وإما أن تعود ولا تكسب من التشاؤم إلا التشاؤم

وقد يكون هـذا التشاؤم عاماً يمثل رسالة الانسانية المتألمة ، وقد يكون خاصاً يمثـل رسالة الشاعر نفسه ، يضع فيها آلامه ولا يتصل بالانسانية إلا بقـدر ما تريد نفسه أن تتصل بها . وآفاق التشاؤم العام أوسع مدى ، وأصحابه أكثر نبلاً لأنهم أفنوا ذواتهم فى الذات الانسانيـة ، وأصبحت تتمثل فيهم كل آلامها وأوجاعها ، لأن الانسانية ذاتها تجهل ما تريد من الـكون وما يراد منها . وآفاق التشاؤم الخاص ضيقة محدودة تدل على أنانية أصحابه ، إذ لو أن حظاً من حظوظ الحياة الضائعة أتاهم لبـدل نظراتهم فى الـكون ولون لهم شمساً جديدة بألوان غير ألوانهم

ولـكن التشاؤم لا تتحد نتائجه ؛ فمن التشاؤم ما يذهب بصاحبه إلى الاستسلام حين يؤمن بعجزه ، وإلى الزهد حين يؤمن بفناء الحياة ، وهذا أقبح التشاؤم وان يكن أصدقه عند العقل . ومن التشاؤم ما يثير فى النفس قوى المقاومة فيها بالعنف والشدة ، وبهذا التشاؤم تعتز الحياة وتشرق ألوانها القاتمة ؛ فشوبنهاور ونيتشـه رجلا تشاؤم حالك اللون ، ولـكن تشاؤم شوبنهاور قاده إلى الاعتقاد بأن العدم وحده هو الذى ينقذ الانسانية من آلامها التى تتذوقها بين الموت والحياة . وتشاؤم نيتشه كان موقظاً لنفسه وحافزاً قوياً له لعبادة الحياة لأنها الحياة مهما كانت ألوانها ومهما طغت آلامها

لست أعرف فى الأدب العربى أبلغ تشاؤماً من اثنين : المعرى وابن الرومى وثالثهما المتنبي .. أما الأولان فقد سلكا فى تشاؤمهما مسلكا عدمياً يدعو إلى احتقار الحياة ، والمعرى هو القائل بأن الولادة جناية ، وهوالذى غلبت عليه فكرة صوفية غير مؤمنة ؛ وابن الرومى هو الذى جعل من حياة الانسان مأساة يبدأ أولها بعويل الطفل حين يولد وتنتهى بمثله حين يموت . أما المتنبي فقد كان جهازه العصبي عنيفاً ، وكان تشاؤمه مضطرباً متوثباً لم يدفعه إلا الى مقاومة الحياة ؛ لا يصدفه عنها صادف لأنه مؤمن بها ومستهام بها ولو أنها عجوز درديس ! وقد كان تشاؤمه ، اجتماعياً — وهو ما اصطلح أدباؤنا على تسميته بالحـكمة النبية — وتشاؤمه الاجتماعى كان وليـد حظه فى هذا الوجود الذى جعل من حياته المبهمة والمعلومة مرحلة آلام وجهاد . تشاؤمه فى نظراته الاجتماعيـة ولا يرى منها إلا ما يتصل بنفسه ؛ ولقد يطغى هذا التشاؤم على بقية نظراته فى مسائل الحيـاة والـكون لأنه كان مريضاً بحب معالى الأمور ، مريضاً بعظمة نفسه ، كأنما يرى — بعد أن حرمه المجتمع حقه — يرى واجبه أن يضع نفسه — وهو حر بها — موضعاً عالياً ، وذا أقل ما يفعل ؟ ولا أستطيع إلا أن أتصور تلك الحدة فى جهازه العصبي الذى كان عنيفاً فى احتداده متوتراً فى هدوئه . وهنا كان سر اختلاف التشاؤم بين المعرى والمتنبي . فالمعرى كان أوسع أفقاً فى دائرته ومغازيه ، وكان نظره أعم فى مسائل الـكون والحياة لأنه وقف درسه وشعره عليها ، وكان له فى زهده وعماه ما يصرفه عن الاشتغال بدنياه . فمال به تشاؤمه الى الزهد والعدميـة كما مال بشوبنهاور . مع أن المعرى أحد محبى المتنبي والمتأثرين به ، أخذ منه تشاؤمه وأغفل ما كان عنده من أسباب المقـاومة . وإذا فـكر الانسان قليلاً فى حاله بدا له أن الـكآبة

تنتظره ، وأن كل فكرة هنا تقوده الى الحزن . وما حياة الانسان على الأرض إلا مأساة تنتهى دائماً بالدموع والشقاء والموت . يعلم المفكرون هـذا المغزى ولـكن بعضهم لا يقول به . بل إن منهم من يدعو الى الايمان القوى بالحياة . ولـكن هل كان الناس كلهم يملـكون هذه القوة الروحية ؟ وهما أمران مختلفان ؛ أن يتغلب المرء على تشاؤمه وهمومه فى سبيل اتمام دورة الحيـاة ، أو أن يجتنب الحياة تطغى عليه أنانية حاقدة . وهل كان هذا الايمان القوى بالحياة إلا نتيجة تشاؤم عميق ونفور عميق من الحياة وولع عنيف بها يولده هذا النفور ؟

فى فلسفة المعرى تشاؤم ليس بايجابى صرف ، ولـكنه تشاؤم سلبى . فيها انطلاق من الذاتية وتعلق بالذاتية : لا تطلق «أم دفر» لمجرد تنتها ولـكنها تدانت من « أم دفر » فلم تبؤ إلا بالخيبـة . فلسفة وجدت ذاتها ضائعة بين الذوات ؛ ومثل ذات المعرى لم تأت لتكون ضائعة ، فشنت الغارة على الدنيا وعلى أهلها وانتقمت لذاتها منها ومنهم ، وبهذا استغنت عن ذاتها فى ناحية وتمسكت بذاتها من ناحية ثانية . ولهذه الذات خطرها لأنها أنانية حاقدة نصبت نفسها فوق غيرها وطفقت تعطى أحكامها القاسـية على الناس وقيمهم وعقائدهم ، وتسخر منهم وتفشى معايبهم وتكشف عن مخازيهم ، وهى فى كل هذا فرحة مختالة ، ترى فى كل خطوة تخطوها ظفراً لها لا معاً . ولهذه العلة وحدها كان يأنس بالمعرى كل متشائم لأنه يحسن له الانتقام من الحياة وأبناء الحياة ولـكنه ظفر موهوم لا يكلف صاحبه إلا النقمـة . أما من لا يزالون يتلمسون فى أنفسهم بقية من الحياة النشيطة فهم لا يرضون عن هذا التشاؤم . فالمتنبى متشائم يهاجم فساد الناس والمجتمع ولـكنه لا يهرب من الحياة ولا ييأس منها يأساً قاتماً ، فى يأسه انطلاق وفى نغمته رضا ، وحياته وأدبه شيئان متصلان لا يمكن أن ينفصلا لأنهما يعبران أصدق التعبير عما يريد أن يقوله عن الحياة ، ولأن حقائقه العامة كانت مستخلصة من حقائق الحياة الخاصة

— ٢ —

ادخل فى كل باب ولجه المتنبى : فى اجتماعياته وفى إحساسه بذاته وفى نظراته إلى الحياة والموت وما وراء الموت تجـد فى ثنايا هذه النظرات تشاؤماً عميقاً ينفذ اليه النظر الثاقب ، وتجد أن هذه المقاومة التى تمثل الرجولة الـكبيرة قد كلفت صاحبها كثيرا ، وجعلت حياته مسرحا للاضطراب والشقاء . أما المجتمع عنده ، فهو غاب تتصارع فيه سباع الأنس ، ينال واحدها الشىء غلاباً واغتصابا . وقد تنقلب هذه السباع غربانا ورخماً ، فويل للجريح الذى يشكو اليها ، وويل للذى يأمن لهم ، ويثق بهم ، ويغره منهم الثغر المبتسم . ولا عجب إذا تناحرت السباع فالحياء لا يسد لها جوعا والسلام لا يحفظ لها بقاء . والشاعر — خلال ذلك — يريد أن يكون أسداً — ولـكن حيياً — « وهل ينفع الأسد الحياء من الطوى ؟ » يريد أن يكسب ما لا يصمه ومالا يشركه فيه وغد . وإذا لم ينل ذلك فالذنب ذنب الزمان الهرم !

كيف يريد أن يقابل مثل هذا المجتمع ؟ أيشكو ويتعتب ، وهو فى كل قصيدة يشكو ويتعتب . أيسكن ويرضى ؟

وللواجد المكروب من زفراته سكون عزاء أو سكون لغوب

أيرضى عن الحياة وما صفت إلا لجاهل متعاقل وما شق فيها إلا عاقل ؟ أيطمئن إلى سرورها وقد رأى انتقاله ؟ أيسى فى منا كبها ومسعاه منها فى شدوق الأراقم ؟ أيتعلل بشىء منها ولا أهل يتعلل بهم ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن ؟

اتخذ الشاعر مواقف متعددة إزاء المجتمع ، فهو طوراً يسعى إلى مداراة أصحابه ، وقلما يفعل فيصادق العـدو ومن نكد الدنيا مصادقته ، وهو طوراً — وقد ملّ من المبالاة بالأرزاء — يسعى إلى أن تهون عليه الأرزاء ، وأن يخدر إحساسه بها ، لأنه ما انتفع بالمبالاة . وطوراً ينظر إلى الأيام نظرة عميقة فلا ينكر عليها تقلبها ، ولا يمدحها ولا يذمها ، لأنها تبطن لا عن جهل ، وتكشف لا عن حلم ، ولأنها لا تشبع إلا إذا جاع ، ولا ترى إلا إذا ظمئ ! وفى هذه النظرة يدنو من مذهب القائلين باللاشعور فى الطبيعة . وقد يضطرب هذا الرأى فى نفسه فيتصور أن الناس هم الجانون لا الأيام وحدها ، فيزيد نقمته على المجتمع ، ويصبح لا يميل الى مجازاة الابتسام بالابتسام ، ولا الشك فى كل إنسان ، لأنه واحد من الأنام ، وإنما يريد أن ينتقم من الناس وأن يطأ قلوبهم وآمالهم كما يطأون قلبه وآماله

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم

وكيف يكون الذنب كله ذنب الزمان ؟ وربما تحسن الصنيع لياليه وإن كدرته أحيانا . ولـكن هو الانسان الذى يركب فى قناة الزمان سناناً . وقد يسأم الشاعر من هذه المقاومة العنيفة

فيعود الى عدم الاكتراث بدهره ، ويرى أن هـذا المراد الذى تتفانى عليـه نفوس البشر أحقر من أن تتعادى فيه وتتفانى . ولـكنه ينظر الى نفسه فيرى أن هذا المراد الـكبير ، المراد الذى جل أن يسمى — هو سبب شقائه . فلو مال عنه لوجد فى الحياة رغداً كثيرا وراحة كبيرة ، ولـكن ما هى قيمة الحياة بدون مراد كبير ؟ والمتنبي ليس ممن يرضون بميسور عيشهم ! فيتعلل وهو أبلغ تعليل يراه بأن لا عذاب فى العذاب ، وأن كل بعيد الهم فيها معذب

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام
فليحمل العذاب فى سبيل ما جل أن يسمى !

هذه مراحل كان يأوى اليها الشاعر فى نضاله ، أقربها تجثم فوقه غيوم سوداء من التشاؤم ، ولقد زاد فى تشاؤمه إحساسه بعظمته التى لا يقنعها مظهر من المظاهر ، وهو الذى كان فى محفل من الناس واليوم أصبح فى محفل من قرود ! ولـكن المتنبي إزاء هذه النوازع هل راح يبغض الحياة ؟ ظل احساس المتنبي برغم هذه العوارض التى ألمت به إحساساً قوياً فنياً ، يحب الحياة ولا ينكر ابتغاء كل نفس للحياة وحرصها عليها وهيامها بها . ومن الذى لم يعشق الدنيا والحياة ؟ ولـكنه لا ينسى أنها لا تنيل أرباً ولا تعطى غاية ولا تسمح بوصال . وقد كان هذا وحده كافياً فى خلق النفور منها ولـكن :

من لذيذ الحياة أنفس فى النفـ ـس وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما ملّ حياة وإنما الضـــعف ملا

وإذا كان الشيخ وحده يمل الحياة بسبب ضعفه فليبادر وهو فتى — الى الحياة — يستخلص منها ملذاتها قبل أن تستخلص منه نفسه ، ويجنح الى اللهو فأوقات اللهو تمر سراعاً كأنها كما قال قبل يزودها حبيب راحل ! والزمان لا لذيذ خالص فيه ولا سرور كامل . . . وليت شاعرنا يقنع بهذا التعليل ، فلقد تطغى عليه فى بعض مواطنه موجة من التشاؤم لا تجد لها مثيلاً إلا عنـد المعرى . . . ينظر الى الدنيا وقد أعياه أمرها فيراها خائنة :

. . . أخون من مومس وأخـدع من كفة الحابل
تفانى الرجال على حبها وما يحصـــلون على طائل
يراها خائنة معشوقة

ومن لم يعشق الدنيا قليل ولـكن لا سبيل الى الوصال

وقد نظر المتنبي فيما نظر الى الموت وما بعـد الموت ، فكان نظره قصيراً فيما وراء الطبيعة وخياله محدوداً ؛ ليس له رأى ذاتى فيه وإنما يسمع ما قيل ويشك فيما قيل ؟ ولعله سمع فى قصيدته التى رثى بها عمة عضد الدولة سمعاً يذكرنا بما سمع اليه المعرى فى الرثاء . فقد مزج نظرته بشىء من الفلسفة الوثنية التى تعيد الأرواح إلى جوها والأجساد إلى تربها وترى كل شىء معلقاً بالزمان

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لابد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجساد من تربه
يموت راعى الضأن فى جهله ميتة جالينوس فى طبـه
وربمـا زاد على عمره وزاد فى الأمن على سربه
وغاية الفرط فى ســـلمه كغاية الفرط فى حربه
لو فـكر العاشق فى منتهى حسن الذى يسبيه لم يسبه

فـكم فى هـذه الصورة الأخيرة من روعة وتشاؤم ! وقد تـكون روعتها فى انطلاقها وإطلاقها الخيال للسامع ، فيصور ويمثل منتهى هذا الحسن الذى يسبيه ، وقد وددت لو أنقل صورة لمثل هذا المنتهى للشاعر الفرنسى « بودلير » فى قصيدته « جيفة » وهل يريد المتنبي من هذا المنتهى إلا هذه الجيفة ؟ وليته رسم لنا خطوطها وأتم صورتها ، ولـكن الموت قد يعكر على المتنبي هناءه ، ولـكنه لا يمنعه منـه وقد يستغل اسمه وهوله — أمام محبوبته ، وجيفته — فيطلب إليها أن تزوده من حسن وجهها قبل أن يحول ، وأن تصله فى هذه الدنيا لأن المقام فيها قليل ، أما رعشـة الموت فهو يحسها ويلمسها ويراها ويدرك كما أدرك المعرى بنظره الشامل أننا :

يدفن بعضنا بعضاً وتمشى أواخرنا على هام الأوالى

وهل فى هذه النظرات العميقة إلا تشاؤم عميق ؟ ولـكنه لم يُسلم صاحبه إلى الاستسلام ؛ تشاؤم يرى كل ما يشق منظره فيحسب يقظات العين حلماً ؛ ويعفو عن الزمن لأنه لا يعقل أن يبلغه ما ليس يبلغه الزمن من نفسه . وهكذا خلق هذا التشاؤم فيـه قوة يعود تعليلها إلى أمور كثيرة ، منها إلى مزاجه ومنها إلى بيئته ؛ وحقاً إذا كان مزاجه العصبي قد أضربه فى موطن